حركة التأليف فى العالم العربى المعاصر
(محاولة للتشخيص)

أ . د . حامد طاهــر *

أتيح لى ، منذ عدة سنوات ، أن أشارك فى مشروع علمى ، يهدف إلى اختيار مجموعة من النصوص العربية لطلاب الجامعات الأمريكية الذين يدرسون اللغة العربية المعاصرة فى بلادهم (١) . وقد تطلبت طبيعة عملى فى هذا المشروع أن أقوم بعملية « مسح » واسعة لكل ما كتب باللغة العربية ، فى شكل كتب أو مقالات ، منذ بداية القرن العشرين حتى مطلع الثمانينات (٢) . وقد كان من الطبيعى أن استخلص لنفسى ، نتيجة الاطلاع على هذا الحشد الهائل من المؤلفات ، عدة ملاحظات ، راحت تتأكد بكثرة الشواهد ، التى قمت – مع زملائى بعد ذلك – بتحليلها تحليلا دقيقاً لاختيار أنسب النصوص من بينها (٣) .

ومن ناحية أخرى ، كنت أتابع عن قرب معارض الكتب التى أقيمت فى القاهرة وبعض العواصم العربية خلال السنوات الأخيرة (٤) . ولابد من الاعتراف بأن هذه المعارض قد أصبحت بالفعل « مهرجانات شعبية للكتاب » يتم فيها طرح ما لدى العالم العربى من إنتاج علمى وثقافى على مختلف المستويات ، ويقبل عليها جمهور غفير ، وتحقق مبيعاتها أرقاماً قياسية من الارباح . ففيها تعرض كتب التراث المحققة ، أو المصورة عى طبعات قديمة ، وكذلك المؤلفات الحديثة والمترجمة عن اللغات الأجنبية ، والمعاجم ، والدوريات ، بالإضافة إلى كتب التثقيف الشعبى ، أو التعريف العام بمجالات معينة فى فى العلوم والآداب . وقد ساعدتنى الأدلة المطبوعة لهذه المعارض مساعدة حقيقية فى تطوير بعض ملاحظاتى السابقة أو تأكيدها .

كذلك لابد من الإشارة إلى إفادتى البالغة من متابعتى لحركة التأليف الفرنسية التى عايشتها ، أثناء إقامتى فى باريس منذ سنة ١٩٧٤ حتى ١٩٨١ . فقد كلفتنى مجلة « البيان » الكويتية بأن أكتب لها رسالة شهرية عن الحركة الثقافية فى فرنسا (٥) ، فكان إعداد هذه الرسالة يتطلب منى اطلاعاً متنوعاً على حركة العلوم والآداب والفنون الغربية ،

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

والتى تعتبر باريس مركزاً نشيطاً لها ، مما كان له أثر كبير على استخلاص بعض الملاحظات الأخرى التى ساعدتنى بصورة مباشرة ، وأحياناً غير مباشرة ، فى بلورة فكرتى عن حركة التأليف فى العالم العربى .

وسوف أقسم هذه الملاحظات إلى قسمين ، يتناول الأول الظواهر الخارجية المرتبطة بحركة التأليف العربية ، أما القسم الثانى فيتصل بصميم الظواهر الأساسية فى عملية التأليف ذاتها .

الظواهـــر الخارجية :

أول ما يبدو أن الانتاج الثقافى المكتوب فى العالم العربى ضخم جداً . ولكن هذه الضخامة ما تلبث أن تتضاءل كثيراً إذا ما قورن حجم هذا الإنتاج بالإنتاج العالمى . فتبعاً لإحصائية حديثة قامت بها هيئة اليونسكو فى بداية السبعينات (٦) ، تبين أن العالم العربى ينتج $\frac{١}{١٠٠}$ من نسبة الإنتاج الثقافى العالمى . وأن ٧٥٪ من هذه النسبة الضئيلة جداً يتمثل فى الكتب الدراسية والتعليمية . ومن المعروف أن هذا النوع من الكتب لا يحسب فى حركة الإنتاج الثقافى لشعب من الشعوب .

فإذا تجاوزنا الآن مسألة الكم ، وجدنا أن الإنتاج الثقافى العربى متنوع إلى حد كبير . لكن هذا التنوع لا يمكن وصفه **بالتوازن** المعقول بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية . ومن الواضح أن مجموعة العلوم الإنسانية — بما فيها الآداب — تحظى بالنصيب الأوفر من جانب المؤلفين والناشرين معا . ولا شك فى أن هذه الظاهرة تعتبر انعكاساً واضحاً لواقع غير متوازن فى العالم العربى نفسه .

وملاحظة أخرى تتصل بتنوع الإنتاج الثقافى العربى ، وهى أنه لا يمكن وصفه أيضاً **بالتكامل** ، بمعنى أن الفروع المختلفة لا تتعاون فيما بينها لتمثيل المعرفة الإنسانية فى إطار متناسق . ففى نفس الوقت الذى تصدر فيه مؤلفات قيمة للغاية عن الاقتصاد المعاصر ، ووسائل تحليل المعلومات ، وإمكانيات الحاسب الآلى فى مجال المعرفة ، نلاحظ استمرار ظهور مؤلفات عربية تتناول السحر ، والتنجيم ، وأسرار الحروف مما يدخل فى باب العلوم السرية القديمة .

وتقودنا هذه الملاحظة الأخيرة إلى مشكلة أخذت فى السنوات الأخيرة تبرز بوضوح على الساحة الثقافية ، وهى ما يطلق عليها « مشكلة الأصالة والمعاصرة » . وتكمن جذور

هذه المشكلة فى وجود نوعين من المؤلفات ، بدأ التنافس بينهما منذ ظهور المطبعة فى العالم العربى ، وهما : كتب التراث ، والكتب المترجمة . ومن الطبيعى أن يكون لكل منهما فريق ، وأن يتحمس كل فريق لما يجيده ، لكن المشكلة تفاقمت عندما راح كل فريق ينكر على الآخر ما يفعله . وبدلا من أن يبحث الفريقان معاً عن أسلوب مناسب للتعايش المثمر يمزج بين القديم والحديث ، زادت حدة النزاع بينهما ، واتسعت مسافة الخلاف إلى حد القطيعة تقريباً . وهذا هو أحد الأوضاع السيئة التى تعانى منها الثقافة فى العالم العربى المعاصر .

وإذا أردنا الاسترسال فى آثار تلك الظاهرة إلى النهاية ، وجدنا وضعاً آخر أكثر سوءاً . فقد أصبح الناشرون العرب يقبلون على نشر أى كتاب قديم ، حتى لو كان عديم القيمة ، باعتباره من « التراث » ، واعتماداً على أنه يجد إقبالا من جمهور القراء ، فى حين أنهم يترددون كثيراً فى قبول أو نشر أى مؤلف حديث ، حتى لو كان جيد المحتوى ، خوفاً من الإقدام على مغامرة مجهولة العواقب .

إننا لا نتجاوز الحقيقة حين نعلن هنا أن معظم الناشرين العرب يلعبون دوراً كبيراً فى إفساد الحركة الثقافية فى العالم العربى . فبدلا من أن يقوموا بواجبهم المهنى فى تسهيل مهمة الكاتب بنقل ما لديه إلى القراء ، أصبحوا — نتيجة ظروف متعددة ومتشابكة نحجم هنا عن ذكرها — هم الذين يتحكمون وحدهم فى توجيه الحركة الثقافية كلها .

إننا نتصور « عملية التأليف الصحيحة » تتم فى حركة دائرية مفتوحة ، وتحتوى على عدة عناصر أساسية تتوالى على النحو التالى :

١ — وضع علمى وثقافى معين .

٢ — مؤلف يتأثر به ، ويستلهمه ، ويحاول تطويره أو تغييره أو تجاوزه .

٣ — ناشر يقوم بنقل ما يكتبه المؤلف إلى القراء .

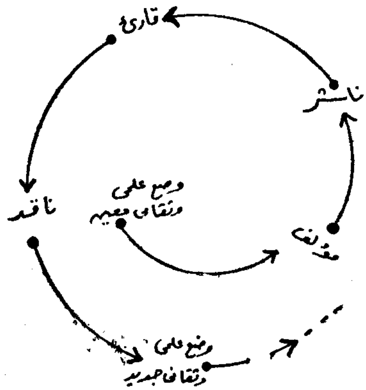
٤ — قارئ يستجيب ، أولا يستجيب ، لما يقدم إليه .

٥ — ناقد يساعد القارئ ، وينبه المؤلف إلى مواطن القوة والضعف ، فيساعد بذلك على إيجاد :

٦ — وضع علمى وثقافى جديد . . .

وهذا الوضع الجديد إما أن يدفع المؤلف السابق إلى معاودة الكتابة مرة أخرى ،

أو مؤلفاً آخر ، يتفق معه أو يختلف ، إلى الكتابة من جديد (٧) وهكذا تمضى حركة التأليف فى دائرة مفتوحة تأخذ فى الاتساع شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الازدهار المنشود . وفيما يلى رسم تقريبى يوضح هذه العملية :



إن كل عنصر من العناصر المذكورة أساسى فى تنشيط حركة التأليف ، ولا شك فى أن غياب أى منها ، أو عدم أدائه لدوره المخصص له ، أو خروجه عن مكانه المحدد له فى الترتيب السابق — يحدث اضطرابا فى الحركة ، وغالباً ما يصيبها بالضعف أو التوقف فمثلا إذا جاء دور الناشر قبل دور المؤلف (كما يحدث حالياً فى العالم العربى حين يكلف الناشر أحد المؤلفين بالكتابة فى موضوع معين ، لأنه هو الموضوع الذى يقبل عليه القراء ، ويحقق مبيعات كبيرة) فإن الوضع العلمى والثقافى لن يحدث فيه أى تغيير ، بل على العكس سيزداد سوءاً ، وبذلك يتصل طرفاً الدائرة أحدهما بالآخر ، فتنغلق ، ولا ينتج عنها الاتساع الذى أشرنا إليه .

لكننا قد نظلم الناشرين العرب إذا اتهمناهم — وحدهم — بإفساد حركة التأليف فى العالم العربى المعاصر . فهناك متهم آخر ينبغى ألا نغفل عن خطورته ، وهو ذلك النظام التعليمى المتبع فى كثير من الجامعات العربية ، ذات الأعداد الكبيرة . فقد ساعد هذا النظام على أن يكتب أساتذه الجامعات « مبادئ العلوم » التى يدرسونها للطلاب فى شكل « مذكرات » ، مرقومة فى البداية على الآلة الكاتبة ، ثم مطبوعة بعد ذلك فى هيئة كتب . ولأن هذه « المذكرات » مضمونة التوزيع فان الناشرين يتسابقون على طبعها . والتفنن فى إخراجها ، وطرحها فى المكتبات ومعارض الكتب ، بعد أن كانت محصورة فى نطاق الجامعات فقط .

إن هذه المذكرات تمثل نسبة كبيرة جداً مما تقدمه المطبعة العربية فى الوقت الحاضر : وخطورتها تكمن فى أنها مجرد مختصرات أو تلخيصات منزوعة الهوامش ، والمراجع ، والمصادر فى معظم الأحيان ، أى أنها غير موثقة ، بالإضافة إلى أن نسبة الإبداع الشخصى فيها تكاد تكون منعدمة . وهو الأمر الذى ساعد ، فى الفترة الأخيرة ، على شيوع سرقتها ، وتبادل الاتهام بين أصحابها .

لقد قدمنا حتى الآن عدة ملاحظات خارجية تتعلق بظواهر عامة تصاحب حركة التأليف العربية . ومن الملاحظ أن بعض هذه الظواهر لا يمكن اعتبارها من صميم عملية التأليف ذاتها ، وإنما هى من الأمور المعارضة لها ، لكنها تؤثر فيها تأثيراً بالغاً ، كما هو الحال بالنسبة إلى دور الناشرين .

أما بالنسبة إلى المجموعة الأخرى من الملاحظات ، فهى تتعلق بظواهر أساسية فى حركة التأليف ذاتها . وسوف نكتفى بالحديث عن « عشر ظواهر فقط » ، نعتبرها ذات أهمية خاصة فى محاولة التشخيص التى نقوم بها :

الظاهرة الأولى : غياب المتخصص فى موضوع واحد فى مجال معين :

لماذا يبدو المؤلف العربى الحديث ملولا إلى هذا الحد ؟ ! فهو لا يصبر طويلا على الاهتمام بموضوع واحد فى علم من العلوم . وهو دائما متنقل بين موضوعات كثيرة ، وأحيانا متباعدة جداً ، لا شك فى أنها تشتت جهده ، ولا تصل به فى أغلب الأحيان إلى حد الإجادة التامة فى موضوع بعينه ، بل على العكس تضفى على دراسته طابع التسطيح ، وتبعدها عن التعمق والتأصيل .

ويكفى أن نسأل عن واحد فقط من الدراسين العرب كرس كل جهوده — مثلا — لدراسة شاعر كبير كالمتنبى . إن عشرات الكتب والمقالات الجيدة ظهرت عن المتنبى ، ولكننا ، على الرغم من تقدم البحث الأدبى الحديث ، لا نستطيع عند الحاجة أن نستفتى منها واحدة تكون هى « المرجع المعتمد » فى عصر الشاعر ، وحياته ، وشعره ، وأثره فيمن جاء بعده ، وبالجملة : نرجع إليه عندما نريد أن نعرف أى شىء عن المتنبى .

ونحن لا ننكر على الكاتب أن يتناول أى موضوع يرى من نفسه الرغبة فى تناوله ، والقدرة على دراسته ، لكننا نقرر فقط أننا نفتقد الكاتب المتخصص الذى « يستمر » اهتمامه بالموضوع الواحد إلى أن يتمكن من وضع الدراسة — الأم فيه ، ثم تأتى بعد ذلك

وجهات النظر المختلفة أو الدراسات الجانبية كما تشاء : تعلق أو ننقد أو تصحح ، وهكذا يعلو باطراد بناء المعرفة ، بدلا من أن تتناثر لبناته دون نظام .

الظاهرة الثانية — المؤلف يكتب فى موضوعات مختلفة ، أو متباعدة فى موضوع معين :

من الواضح أن هذه الظاهرة هى الوجه الآخرى للظاهرة الأولى . ومن المعروف أن النصف الأول من القرن العشرين قد شهد مجموعة من خيرة الدارسين والكتاب فى العالم العربى ، وأن عدداً منهم لا تقصر قامته عن أمثاله من الكتاب العالمين الذين ظهروا تقريباً فى نفس الفترة (مثال : الدور الثقافى الذى أداه العقاد فى مصر لا يقل أبداً عن الدور الثقافى الذى أداه بول فاليرى فى فرنسا) .

لكننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الكتاب قد وزعوا اهتماماتهم بين موضوعات كثيرة جداً ، وهو أمر كانت تتطلبه طبيعة عصرهم بدون شك . فقد كان تطبيق المنهج فى الدراسات الإنسانية ناشئاً ، والوضع الثقافى والعلمى بحاجة إلى التعريف بكل الجوانب ، ولو تعريفاً خاطفاً . وهذا هو الحال مثلا بالنسبة إلى « التأريخ للأدب العربى » فى عصوره المختلفة . فقد قام بهذا العمل كل من جورجى زيدان ، والرافعى ، والزيات ، وأحمد أمين من منطلقات مختلفة ، ولكن ما تركوه لم يخرج عن كونه مجرد مختصرات تبتعد قليلا أو كثيراً عن التأريخ الحقيقى العربى فى كل مظاهره منذ نشأته حتى الوقت الحاضر .

أما المثال الأكثر تعبيراً عن الظاهرة التى تهمنا هنا ، فيمكن تقديمه من أعمال أستاذ جليل ، هو الشيخ محمد أبو زهرة ، الذى عمل تقريبا فى مجال واحد هو ، مجال الفقة الإسلامى (٨) ، وكتب فى ذلك عدة مؤلفات قيمة عن أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة فى العالم الإسلامى : أبو حنيفة ، مالك ، الشافعى ، ابن حنبل ، ابن حزم الظاهرى . . ومن الواضح أنه كان يريد أن يملأ فراغات كثيرة فى الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة . لكننا نتساءل فقط : ماذا كان يحدث لو أعطى الشيخ أبو زهره كل جهوده لمذهب واحد فقط من هذه المذاهب . . إذن لأصبحت لدينا الآن فيه الدراسة — الأم ، ولأمكن لمن جاء بعده أن يضع الدراسة الثانية ، والثالثة ، وهكذا .

الظاهرة الثالثة : المؤلف الواحد يكتب فى أكثر من مجال :

تعتبر هذه الظاهرة امتداداً طبيعياً للظاهرة الثانية . ولكنها أخطر منها بكثير . فاذا

كانت الموضوعات المختلفة أو المتباعدة فى المجال الواحد مشتتة للجهد ، ومبعدة عن التأصيل المنشود ، فإن المجالات المختلفة أكثر تشتيتاً ، وأسوأ أثراً .

ومن أبرز نماذج هذه الظاهرة : العقاد ، الذى ملأ الدنيا وشغل الناس فى عصره . فقد كتب شعراً ، ورواية ، ومقالات سياسية ، ونقداً أدبيا ، ودراسات إسلامية . وكذلك د . طه حسين ، الذى هز الحياة الثقافية فى عصره هزًّا عنيفاً : كتب روايات ، ونقداً تاريخياً ، ونقداً أدبياً ، ودراسات إسلامية ، كما ترجم عدداً من المسرحيات الإغريقية ، وشارك فى تحقيق عدد من كتب التراث العربى .

ويمكن القول بأن كلا من العقاد وطه حسين يبقى بكل « أعماله » على وجه العموم ، ولكنه لا يبقى بواحد منها على نحو خاص . وهذا يفسر لنا أننا درسنا بالفعل أشياء كثيرة ، ولكننا عند الفحص الدقيق ما زلنا نكتشف أنها بحاجة إلى معاودة الدراسة من جديد ؛ بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك حين نعلن أن هذين الكاتبين كان لهما تأثيرهما الشديدفى تأكيد وشيوع ظاهرة عدم التخصص التى ما زالت موجودة حتى اليوم فى الثقافة العربية المعاصـــرة .

الظاهرة الرابعة : المؤلف الواحد يكتب بمستويات متفاوته فى مجال واحد أو فى مجالات متعددة :

يرجع شيوع هذه الظاهرة ، فى المقام الأول ، إلى انتشار « الصحف والمجلات » التى أصبحت مجالا مفتوحاً لكل المؤلفين العرب ، إلى جانب الكتب التى كانت فيما مضى هى المجال الوحيد لنشر دراساتهم المتخصصة . ولا شك فى أن الصحافة بالحاحها اليومى أو الشهرى تتطلب من هؤلاء المؤلفين أن يقدموا إليها « أشياء مبسطة ، وعلى وجه السرعة » لإرضاء رغبة القارئ المتعجل .

وإذا كنا لا نسمع عن اسم مؤلف عربى واحد يحجم عن نشر آرائه من خلال الصحف والمجلات ، فإننا على العكس نرى الكثير منهم مندفعاً فى هذا التيار ، السريع التدفق ، والذى أصبح له ، مع الأسف ، تأثيره الشديد على حركة التأليف العربية .

فما الذى يدفع باحثاً إلى أن ينفق عدة سنين أو شهور فى بناء تصميم جيد لموضوع ينشره فى كتاب ، فى حين أن الفرصة أمامه متاحة لكتابة عدة مقالات ، يومية أو شهرية ، تنهض على الملاحظات الشخصية ، وأحياناً على الذكريات (٩) ، دون الحاجة إلى الرجوع إلى المصادر ، أو الاستعانة بالوثائق ؟ !

وبالمناسبة ، نحن لسنا ضد تبسيط المعرفة لجمهور القراء ، ولكننا ضد التبسيط المخل الذى يُفقد الباحث قدرته الأساسيةعلى التعمق فى حقائق الأشياء ، وتحديد المشكلات أو مناقشتها ، وتقديم الحلول المناسبة لها . وهذا ما لا يتأتى غالباً فى إطار الصحافة اليومية أو الشهرية .

إننى أقدر كثيراً مؤلفاً غزير الإنتاج هو الأستاذ أنور الجندى فهو يحسن تجميع الوثائق حول موضوع واحد ، ويجيد عرضه ، ولكننى أجده يعتبر مثالا واضحاً على الظاهرة التى نتحدث عنها.فقد راح ينشر فى الآونة الأخيرة عدداً كبيراً جداً من الكتيبات ، الصغيرة الحجم ، التى تحمل عناوين ضخمة ، لا يمكن بحال أن تعالج فى مثل هذا المستوى ونكتفى هنا بذكر عناوين بعض هذه الكتيبات : « الخلافة الإسلامية » ، « صحوة المفاهيم الإسلامية : الغزالى ، ابن تيمية ، ابن حزم » ، « الفنون والمسرح » ، « حركة الترجمة » (١٠) .

ومرة أخرى نقول إن التبسيط عمل ضرورى . ونحن محتاجون إليه ، وخاصة فى مرحلتنا الثقافية الحالية ، لكنه ينبغى ألا يجذب إليه الباحثين الذين تحتاجهم الدراسات الجادة ، والأعمال الكبيرة المتعمقة .

الظاهرة الخامسة : العناوين الفضفاضة :

يساعد الجو العلمى والثقافى ، أثناء تدهوره ، على شيوع عدة ظواهر متشابكة تعتبر ظاهرة « العناوين الفضفاضة » من أبرزها ، وتنتشر هذه الظاهرة عند ما يستمر صمت النقاد عما يقدم عليه بعض المؤلفين من وضع عناوين أكبر من الموضوعات التى يتناولونها كتبهم ، إما رغبة فى الشهرة ، أو مجاراة للأسلوب الصحفى الذى يسعى لجذب انتباه القراء ، أكثر من سعيه إلى تعليمهم . ومن الواضح أن الدافعين لا يتعارضان .

إن كمية ضخمة جداً من المؤلفات العربية فى القرن العشرين تتسم بهذه الظاهرة التى يكون فيها عنوان الكتاب غير مطابق تماماً لمضمونه . وسوف أكتفى هنا بمثال واضح ، أكن لصاحبه كل احترام ، لكن هذا لا يمنعنى من نقده ، وهو كتاب « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » للأستاذ الدكتور على النشار . وإنما اخترت هذا الكتاب بالذات لأنه يحظى بمكانة طيبة لدى كل الدارسين المحدثين تقريبا . والواقع أنه كتاب جيد ، بل رائد فى بابه . ومن الطبيعى أن يتوقع القارئ من عنوانه أن المؤلف يتناول فيه (كل مناهج البحث لدى مفكرى الإسلام) ولكنه حين يدرسه أو يقرأه يتبين له أن موضوعه الأساسى ينحصر فى « نقد ابن تيمية لمنطق أرسطو » . ولا شك فى أن هذا الموضوع الأخير

يعتبر جزءاً صغيراً جداً من مناهج البحث الإسلامية . وهكذا يتضح أن العنوان أكبر بكثير من المحتوى الحقيقى للكتاب .

الظاهرة السادسة — موضوعات لا تعبر عن مشكلات حقيقية :

تشيع فى حركة التأليف العربية نسبة كبيرة جداً من المؤلفات التى تتناول موضوعات لا تساير ما يمر به العالم العربى من مشكلات واقعية ، أو يتطلع إليه من آمال . ومن الغريب أن الجامعات العربية كان عليها أن تولى هذا الأمر عناية خاصة غير أن ما يصدر عنها — هى نفسها — من رسائل الماجستير والدكتوراه — التى تنشر بعد ذلك فى كتب — يعكس قدراً كبيراً من اللامبالاة بالمشكلات الحقيقية التى تتعلق بالأمة العربية والإسلامية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها . (١١) .

والواقع أن هذه الظاهرة تبدأ مع بداية تخصص طلاب الجامعات فى مرحلة الدراسات العليا . فكثيراً ما نجدهم حينئذ حيارى أمام « موضوع يختارونه للدراسة » وهذا يعنى — فى حد ذاته — غياباً للإحساس بالمشكلات الحقيقية فى مختلف مجالات دراساتهم السابقة. وهناك عدد كبير من طلاب الدراسات العليا يتركون لأساتذتهم أو لزملائهم اختيار الموضوع الذى يدرسونه . وهنا تتدخل اللوائح العقيمة فى إبعاد بعض الطلاب عن موضوعات تمت دراستها من قبل ، ولكنها مازالت بحاجة إلى دراسات جديدة ، وتوجيههم إلى « موضوعات لم تدرس من قبل » حتى ولو كانت عديمة القيمة والفائدة العلمية .

ومع ذلك فإن هذه العمليات قد تكون مفيدة للطلاب أنفسهم ، وخاصة فى مرحلة تدريبهم على منهج البحث وأساليبه ، ولكن مخاطرها تبدو عندما تنشر أعمالهم فى شكل كتب من المفروض أنها تمثل الإنتاج العلمى والثقافى فى العالم العربى .

إن الأمثلة على هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى ، لكن الاستشهاد عليها بالأمثلة سوف يجرنا إلى مشكلات لا نود الدخول فيها . ويكفى أن نشير هنا — على سبيل التندّر إلى ما نجده فى توصيات إحدى رسائل الدكتوراه ، التى درس فيها الباحث أحد علماء البلاغة العرب » فقد « اكتشف » أن ألف سنة قد مرت على وفاة صاحبه ، وأنه لذلك يقترح إقامة مهرجان عالمى للاحتفال به !

الظاهرة السابعة — غياب الحلول المبتكرة أو الرؤى الجديدة : —

يذكر حاجى خليفة فى مقدمته الممتازة لكتاب « كشف الظنون » أن « التأليف » على سبعة أقسام ، لا يؤلف « عالم عاقل » إلا فيها ، وهى :

إما شىء لم يسبق إليه فيخترعه ،

أو شىء ناقص يتممه ،

أو شىء مغلق يشرحه ،

أو شىء طويل يختصره ، دون أن يخل بشىء من معانيه ،

أو شىء متفرق يجمعه ،

أو شىء مختلط يرتبه ،

أو شىء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه » (١٢) .

ويهمنا هنا القسم الأول الذى تحتاج إليه حركة التأليف العربية احتياجاً شديداً ، وقد وضعنا إلى جانب الحلول المبتكرة للمشكلات : الرؤى الجديدة لها ، بمعنى أن طرح المشكلة طرحاً صحيحاً يساعد كثيراً على حلها ، تماماً كما أن الملاحظة الجيده للظواهر مما يؤدى إلى صحة تفسيرها .

لكن الملاحظ أن الكثرة الغالبة من المؤلفات المتخصصة فى الدراسات اللغوية ، والأدبية ، والدينية تقوم على ما يشبه « الاتباع » . ويبدو ذلك بوضوح من المادة التى تتناولها . فهى تتناقل فيما بينها عدداً محدوداً من النصوص المأخوذة من كتب التراث ، دون السعى إلى اكتشاف نصوص أخرى غيرها تفجرّ تفسيرات جديدة ، وتدفع بالتالى إلى التطور المنشود فى هذه الدراسات .

ومن المعروف أن الابتكار يعتمد على القدرة على إطلاق الفروض الكبيرة ومحاولة إثباتها . وقد كان حدثاً علمياً مثيراً عندما نشر المستشرق الأسبانى آسيد بلاثيوس دراسته عن تأثير دانتى فى الكوميديا الإلهية بعناصر إسلامية ، (١٣) ويقرب منه ما اقترحه لمستشرق الفرنسى بلاشير من ضرورة وضع تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربى ، لا يقوم على ما جرى العرف عليه من تقسيم هذا الأدب تبعاً للدول والعصور السياسية (١٤) .

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أن نشير إلى أن الدارسين الغربيين ، أو المستشرقين ، ما زالوا هم الذين يملكون زمام المبادرة فى ميدان الابتكار ، على حين أن المؤلفين العرب يكتفون إما بمتابعة آرائهم ، أو بالرد عليها وتفنيدها .

وهذا يقودنا إلى ما شاع فى السنوات الأخيرة مما يمكن أن نطلق عليه « ظاهرة الرد على آراء المستشرقين » . . ولا جدال فى أن هذا عمل جيد فى حد ذاته ، وخاصة عندما يتم باللغة التى يكتب بها المستشرقون أنفسهم . لكن الذى يحدث أننا نسعى بأنفسنا إلى نقل بعض ما كتبوه إلى اللغة العربية ، ثم نستنفد وقتاً وجهداً كبيرين فى الرد عليه ، وتفنيده باللغة العربية أيضاً . ومن الآثار السلبية لهذه الظاهرة أنها أدت إلى وقوف المؤلفين العرب فى موقف الدفاع ، ينتظرون ما يتساقط على أرضهم من كتابات المستشرقين لكى يقوموا بعد ذلك بتفنيده ، دون أن يتقدموا هم أنفسهم فى مجال الابتكار ، أو التفسير الجديد للظواهر التى يدرسونها .

أما فى مجال العلوم التجريبية فلسنا بحاجة إلى التأكيد على أن المؤلفين العرب يتبعون المؤلفين الغربيين « حَذْوَكَ النعلَ بالنعل » كما يقول التعبير العربى القديم، وتكاد تكون المؤلفات العربية فى هذه المجالات ترجمة أمينة ، أو أحياناً حرفية ركيكة لما فى المؤلفات الغربية .

إن الابتكار فى مجال التأليف على الرغم من أنه قد يحدث فجأة ، إلا أنه يكون عادة وليد سنوات طويلة من الجهد الفردى ، ونتيجة لجو علمى وثقافى معين (١٥) ، ومن الواضح أن الوضع العلمى والثقافى الحالى فى العالم العربى لا يشجع كثيراً على مثل هذا الابتكار . ومع ذلك ، فمن الضرورى تجاوز هذه الدائرة المحكمة .

الظاهرة الثامنة : عيوب لغة التأليف :

نقصد باللغة هنا معناها الواسع الذى يشمل اختيار الألفاظ ، وصيغ الأفعال ، وأدوات الربط ، وبناء الجمل ، واستخدام المصطلحات ، وطرائق التعبير العلمى المتعارف عليها ، وبالجملة : الأداة الأساسية التى يقدم بها مضمون العمل العلمى أو الثقافى .

ولا شك فى أن لغة التأليف العربى قد تعرضت خلال نصف القرن الأخير لتغيرات جذرية تحتاج حقاً إلى مزيد من الدراسة . ويكفى أن نشير هنا إلى نوعين من التأثير ساعداً على هذه التغيرات ، وهما :

(أ) تأثير اللغات الأجنبية ، والأعمال المترجمة عنها .

(ب) تأثير اللهجات العامية .

وقد نسلم بالقول الفرنسي المشهور « إن الأسلوب هو الرجل » ، وذلك فى مجال الفنون والآداب ، ولكننا فى مجال البحث العلمى ، والدراسات المتخصصة نتطلب مستوى شبه موحد من اللغة التى يتفاهم بها المشتغلون فى ميدان معين ، إن لم يكن فى مجموعة متقاربة من المجالات . وأهم خصائص هذه اللغة أن تكون واضحة ، ودقيقة .

والملاحظ أن العالم العربى قد أصبح يحتوى حاليا على أكثر من « لغة عربية » إن صح — فهناك لغة فى المشرق العربى يمثلها كتاب سوريا ولبنان ، ولغة فى المغرب يمثلها كتاب المغرب وتونس ، وبينهما تتردد لغة مصر التى راحت هى الأخرى تتأثر بلغة كلا الفريقين . وهذا هو السبب فى أنه عندما ظهرت مجلة « فصول » فى مصر ، فوجئ المثقفون بلغة مختلفة تماماً عما ألفوه فى مجال النقد الأدبى . ومما بلغنى فى هذا الصدد أن الكاتب الروائى نجيب محفوظ قد اندهش من مقال نقدى مكتوب فيها عن أحد أعماله ، واعترف بأنه لم يفهمه !

فإذا انتقلنا إلى اللغة ذاتها فوجئنا بضروب من الفوضى المنتشرة على نحو واسع . ولا شك فى أن أحد أسباب انتشارها : صمت النقاد الذين لا يجرؤون ، فيما يبدو ، على تناول هذا الجانب الحساس . أجل ! فإن « اللغة » لدى المؤلف العربى ما زالت تعتبر جزءاً من « خصوصياته » التى لا يقبل لأحد أن يتعرض لها . . اللهم إلا بالمديح ! ومع ذلك ، فما أشد إهماله لها ، وعدم حرصه على استخدامها الاستخدام الصحيح !

إن المؤلفات العلمية الجيدة مكتوبة دائماً بلغة جيدة . وقد قال كونديلاك إن « العلم الجيد ليس إلا لغة أجيد رصفها » ، وسوف نسجل هنا بعض ملاحظاتنا فى هذا الصدد على سبيل « الإشارات التحذيرية » ، تاركين لعلماء اللغة دراسة هذا الموضوع الحيوى :

(أ) إهمال علامات الترقيم مما يحدث فوضى فى العبارات ، وعدم ترابط بين الجمل ، كما يساعد على الاستطرادات المخلة .

(ب) الأخطاء المطبعية ، ورغم أننا ننسبها دائماً إلى عمال المطبعة ، فإن المؤلف يتحمل مسئولية كبيرة فى ضرورة متابعة عمله ، حتى مراحلة الأخيرة ، ومنها مراجعة تجارب الطباعة (١٦) .

(حـ) الأسلوب الإنشائى الفضفاض الذى يعتمد على التشبيهات والمجازات فى غير موضعها الذى تتطلبه . ويحضرنى مثال على ذلك : فقد وصف أحد المؤلفين الحالة الثقافية المزدهرة فى العصر العباسى بأنها « بستان تفتحت فيه شتى الورد والرياحين » !

(د) اختلاط لغة الأدب بلغة البحث العلمى . . ومن المقرر أن كلتا اللغتين تختلف عن الأخرى . فبينما تقترب الأولى من الذاتية تنزع الثانية إلى الموضوعية ، وبينما يغلب على الأولى الطابع العاطفى والانفعالى تتسم الثانية بالطابع العقلى والمنطقى . . الـخ .

(هـ) إهمال مطالع الفقرات بعدم مراعاة الدقة فى استخدام العبارات العلمية المتعارف عليها فى البحث العلمى من أمثال : (لاشك) ومن المقرر (ومن الواضح)

(ومهما يكن من شيء) (وفى رأيى أو فى رأينا) (ونؤكد) (ونحسب (ونظن) (وترجح) . . . إلخ .

إن هذه العبارات — على الرغم من إهمال المؤلفين العرب لها فى أغلب الأحيان — هى التى تعطى للبحث أو المقال تماسكة المنطقى ، وتدفع أفكاره إلى التطور المطلوب ، الذى ينتهى دائماً إلى نتيجة محدودة .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن لغة الصحافة العربية ربما كانت أكثر استجابة للمضمون الذى تقدمه للقراء . ونعتقد من جانبنا أنه إذا بحثنا عن أسباب ذيوع بعض كبار الصحفيين العرب لوجدنا أن « لغتهم » تأتى فى مقدمة هذه الأسباب . وعموماً فإن هذه النقطة تحتاج إلى دراسة أوسع .

الظاهرة التاسعة : غياب الأعمال الأساسية ، والأدوات اللازمة للبحث العلمى :

ونقصد بها دوائر المعارف العامة ، والمتخصصة ، والمعاجم اللغوية ، الموحدة اللغة والثنائية ، والمعاجم الموضوعية التى يختص كل منها بمجال معين . . ولسنا ننكر وجود « بعض » هذه الأعمال ، المكتوبة باللغة العربية ، كما لا ننكر جهد من قاموا بها إلا أننا نلاحظ أنهم غالباً أفراد تنوء قدراتهم بمثل هذه الأعمال التى تتطلب فرقاً كاملة من العلماء والمتخصصين .

إن وضع القاموس فى العصر الحاضر لم يعد مهمة فرد واحد ، بل إنه مهمة هيئة متكاملة تضم إلى جانب العلماء : الإداريين ، والفنيين ، والرسامين ، والمصورين ، وحتى المطبعة اللازمة لإنجاز مثل هذا العمل .

وهذا هو السبب فى أن الأعمال العربية المتناثرة فى هذا المجال لا يمكن الاعتماد الكامل عليها . فهى ناقصة ، كما لا تجرى متابعتها ، لأن القاموس أو دائرة المعارف ليس مجرد كتاب يؤلفه صاحبه ويمضى . . إنه عمل مفتوح يتطلب استمرار تصحيحه ، وتنقيحه ، والاختصار منه ، والإضافه إليه .

أليس من المؤسف حتى الآن عدم توافر قاموس أساسى « معتبر » للغة العربية ، يساعد القراء والمتخصصين على الإفادة السريعة منه ، كما هو الحال بالنسبة إلى القواميس الأساسية فى معظم لغات العالم ؟

فإذا انتقلنا إلى الموسوعات ، وجدنا ظاهرة أخرى . فبالإضافة إلى أنها فى الغالب تقوم على جهود فردية ، نجدها لا تقدم المعلومات بالحياد الكامل ، بل على العكس تتبنى وجهة نظر الكاتب . ومن أحدث الأمثلة على ذلك « الموسوعة الفلسفية » التى أصدرها أ . د . عبد الرحمن بدوى ، والتى جمع فيها عدداً كبيراً من المواد والشخصيات الفلسفية ، ولكنها يغلب عليها طابع « الدراسة » التى تحمل وجهة نظر صاحبها دون أن تكتفى بتقديم المعلومات الأساسية فى الموضوع الذى تتناوله . ونتيجة للفردية فى وضع مثل هذه الموسوعة نجدها « غير مستوعبة » لمواد وشخصيات أساسية فى المجال الفلسفى .

كذلك يحتاج البحث العلمى إلى كشافات الكتب ، والموضوعات ، والمؤلفين ، والأعلام . . إلخ . ومن الواضح أن هذه الكشافات لا تتوافر على النحو اللائق فى العالم العربى . وما يوجد منها لا يخرج عن كونه مجرد محاولات متناثرة ، إذا لبت حاجة الدارس فى نقطة واحدة ، فإنها لا تسعفه فى كثير من النقاط . وهنا تكمن إحدى صعوبات البحث العلمى فى العالم العربى .

الظاهرة العاشرة — عدم متابعة حركة التأليف بالتصنيف والنقد :

العالم العربى مشغول ، فى الوقت الحاضر ، بمشكلات كثيرة ، ومعقدة ومتشابكة . ولا شك فى أن هذه المشكلات تأخذ من اهتمام أبنائه الكثير ، كما أنها تضعهم فى حالة من « اللامبالاة » التى تشهدها فى جميع المجالات تقريبا . ولا تشذ حركة التأليف عن هذه الحالة . فالمتابعة فيها ، سواء بالسيطرة على الإنتاج الثقافى أو بالنقد ، تكاد تكون معدومة ومما يساعد على ذلك صعوبة الاتصالات بين المؤلفين فى البلد العربى الواحد ، فضلا عن البلاد العربية المختلفة . وقليل هم الباحثون الذين يلمون إلماماً كافياً بكل ما يصدر فى مجالهم الخاص : وما أشد حيرة طلاب الدراسات العليا بعد أن يقع اختيار الواحد منهم على

موضوع معين ، ثم يضطر للتأكد من أن هذا الموضوع قد تمت دراسته من قبل أم لا ، فلا يجد من (أو ما) يدله على ذلك !

وإذا كانت مهمة التصنيف تقع فى المقام الأول على عاتق دور الكتب ، ودور النشر ، ومراكز البحوث (وهذه كلها مقصرة كما هو واضح) فإن مهمة النقد من صميم عمل النقاد . وهؤلاء شبه غائبين ، أو أنهم موجودون لكنهم صامتون .

إن عملية النقد فى داخل حركة التأليف هى التى تمنحها الحيوية ، وتبعث فيها مزيداً من النشاط . وهذا أمر معروف فى ثقافتنا العربية القديمة فقد كان المتنبى واحداً من أكبر شعراء العربية ، ومع ذلك فقد تم نقد شعره بعنف ، كما تم أيضاً الدفاع عنه ، وتفنيد هذا النقد . ومحيى الدين بن عربى ، الصوفى المحير ، هوجم ودوفع عنه ، وفى كلا الحالين كسبت الثقافة العربية والإسلامية من وراء ذلك الكثير .

وفى النصف الأول من القرن العشرين ، ظهر فى العالم العربى كتابان أثارا عاصفة من النقد والتعليقات ، هما « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين ، و « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق . ولا ينكر علينا أحد أن النقد الذى ووجه به هذان الكتابان قد بعث الكثير من الحركة ، والحيوية فى الفكر العربى الحديث .

لكن خفوت صوت النقد فى العالم العربى المعاصر يجعل حركة التأليف تسير فى طريق مسدود ، فضلا عن استمرار ما يشيع فيها من ضروب الفوضى ، وانعدام الضوابط الأولية ، التى تعتبر من أساسيات البحث العلمى . ولا شك فى أن هذه الخفوت له أسبابه وليس من المستحيل الكشف عنها ، وتوضيحها ، تمهيداً لتجنبها .

* * *

وأخيراً فإن الظواهر التى ذكرناها فيما يتعلق بحركة التأليف العربى قد تدعو إلى اليأس ، لأنها فى مجموعها سلبية . ولكنها كأى حركة ، غير متوقفة ، لن تلبث أن تجد وسط هذه الفوضى طريقها الصحيح ، بفضل المتابعة المستمرة من جانب النقاد الذين ينبغى أن يؤدوا دورهم بقدر كبير من الجدية ، بل والفدائية وكذلك من جانب المؤلفين الذين ينبغى أن يواجهوا المشكلات الحقيقية فى مجتمعهم متجنبين الانجراف فى تيار وسائل الأعلام السريعة ، ثم من جانب الناشرين الذين ينبغى عليهم أن يحترموا مهنتهم الأصيلة ، وميثاق شرفها غير المعلن . وفى النهاية ، من جانب القارئ ، الذى بيده أن يضع حداً لكل

المهازل التى تجرى أمامه فى حركة التأليف ، ويعتبر هو أيضاً مسئولا عن المشاركة فى استمرارها .

إن حركة التأليف العربية هى المقياس الحقيقى لحركة العقل العربى ، وقدرته على متابعة التطور والتقدم . وليست مشكلات الثقافة الحالية فى العالم العربى إلا النتائج المباشرة لحركة التأليف نفسها . لذلك فإن محاولة الاقتراب من هذه الحركة ، بتشخيص أمراضها ، وملاحظة تطوراتها ، ثم اقتراح الحلول المناسبة لها — أمر على درجة كبيرة من الأهمية ، إن لم نقل إنه المفتاح الحقيقى لحل كثير من مشكلات التخلف التى يعانى منها العالم العربى فى الوقت الحاضر .

* * *

الهــوامش :

(١) اشترك معى فى هذا المشروع الذى استمر عامين كل من د . اليزابيث سارتين ، وهى باحثة إنجليزية متخصصة فى دراسة السيوطى ، وتقوم حالياً بتدريس التاريخ الحديث فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والباحثة الأمريكية كريستين بريستاد التى تقوم حالياً بإعداد رسالتها للدكتوراه فى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة .

(٢) كانت مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى ميدان العمل الأساسى لهذا المشروع . وهى مكتبة حديثة ومنظمة . وقد استعنت أيضاً بمكتبة جامعة القاهرة ، وكذلك مكتبة كلية دار العلوم ، الغنية بمجموعة من أندر المطبوعات العربية .

(٣) من بين أكثر من خمسمائة نص ، قمنا باختيار ثمانين نصاً فقط ، تمثل جوانب النشاط العربى والإسلامى فى الوقت الحاضر . وكانت عملية الاختيار تخضع لمقاييس موضوعية ، ثم يجرى بعدها شرح الألفاظ والعبارات المشكلة فى النص ، وأخيراً تم ترجمة معظم مفرداته إلى اللغة الإنجليزية .

(٤) من أهمها : معرض الكتاب الدولى الذى تم فى مدينة الدوحة بقطر — فبراير ١٩٨٦ .

(٥) نشرت هذه الرسالة بعنوان « رسالة أوربا » فى مجلة البيان التى تصدرها رابطة الإدباء بالكويت على مدى عامين : ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ .

(٦) عدد خاص من مجلة الكاتب الجزائرية — مايو ١٩٧٣ .

(٧) وهذا يشبه ما يطلق عليه علماء التربية المحدثون مصطلح Feedbaek ويترجمونه بالتغذية المرتجعة .

(٨) بالإضافة إلى مجال الفقه ، كتب عن المذاهب الإسلامية (علم الكلام) ، والمسيحية (مقارنة أديان) .

(٩) من أهم الأمثلة على ذلك مجموعة كبيرة من المقالات كتبها الأستاذ عباس خضر تحت عنوان « هؤلاء عرفتهم » ونشرت فى مجلة الثقافة .

(١٠) كلها من مطبوعات دار الاعتصام بالقاهرة .

(١١) انظر الفصل الذى كتبناه عن « المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة فى الفلسفة الإسلامية » ص ٩٥ — ١١١ ، فى « مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية » . القاهرة ١٩٨٤ .

(١٢) كشف الظنون ، ص ٣٥ .

(١٣) نشر هذا البحث بالأسبانية سنة ١٩٢٩ . ولم يترجم حتى الآن إلى اللغة العربية ، رغم استفادة كثير من الدارسين العرب منه . انظر آخر دراسة بالعربية ظهرت فى هذا الموضوع للدكتور صلاح فضل بعنوان « العناصر الإسلامية فى الكوميديا الإلهية » القاهرة ١٩٨٢ .

(١٤) ترجم هذا البحث الجيد زميلى الدكتور أحمد درويش بعنوان « تقسيم جديد للأدب العربى » فى « دراسات عربية وإسلامية » الجزء الثانى ص ١٠٢ — ١١٦ .

(١٥) انظر فى هذا الموضوع دراستنا بعنوان « نظرية الاختراع ودورها فى البحث العلمى » المنشور فى حوليات كلية دار العلوم ص ٢١٣ — ٢٣٠ — العدد العاشر ١٩٨٣ .

(١٦) من الأمور اللافتة للنظر أن الكتب الأجنبية تكاد تخلو تماماً من مثل هذه الأخطاء المطبعية . وليس هذا بالأمر العجيب . فإن مراجعتها وتصحيحها يتمان بدقة ويقظة بالغتين .